ملامح الحب في الشعر الحديث

بقلم أحمد يوسف داود

في لحظات التفتح الاولى ، وحين يمتلىء القلب بالالق الرائع للانسجام الكوني العظيم.. حين تفمره فتنة الميلاد والصيرورة والخلق، وتبدأ الحياة بالتعبير عن قدرتها المذهلة على الوجود فينا بالشكل الحار المبدع الدفاق ... وحينما نجسد كل هذه العبقرية الخالدة المنوع الانساني ، في الحنين الى الجنس الآخر ، مانحين الحياة أقصى قدرة لها على التجسد والسمو .. لحظتها ، نكون قد عرفنا ، بصورة ما ، سر الكمال الانساني الذي نطمح اليه ، وضياء التناسق المبدع لعمل عناصر الكون ، وجلاله ونقاءه .. نكون قد رغبنا بالحب بعيدا عن التلوث بشوائب العالم .. بعيدا عن كل شيء ما عدا ذلك الانبهار الفاتن السعيد .

ان الحب آنئذ لا يكون مجرد علاقة رجل بامرأة . انه التعلق بكل ما يمنح الانسان تلك الدفقة الحيوية المتأججة ، ويفتح ـ عن طريق الجمال ـ دربا مشرقة الى التواصل مع العالم .

ولقد ظلت الرغبة في الحب عند الانسان تعادل الرغبة في الحياة ذاتها ، وبقدر ما تمتلك الحياة من مشروعية ، يمتلك الحب ايضا . ان الشاعر العربي قد عبر دائما عن هذا ، ساميا أحيانا حتى ليصبح شهيد عشقه ، مسفا أحيانا أخرى حتى ليصبح الحب لديه مجرد تعبير تافه عن لذائذ الجسد .

ولكن ثمة أمرا لا بد من التأكيد عليه قبل كل شيء ، ذلك ان اعتبار الحب حالة وجد مطلقة ، أي مجردة عن عواملها الحضارية ، وبعيدة عن التأثيرات الاجتماعية لهي اساءة له تعادل الاساءة في اعتباره مجرد حاجة فيزيولوجية محدودة . ان الحب حالة ابداع انساني ساهمت في تكوينها وتطويرها الطبيعة والانسان والصيرورة الحضارية الدائمة النوع ، وهو بهذا المعنى كشف وخلق متداخلان مع آلية عمل العناصر الاخرى للحياة بطريقة معقدة ولكن .. متكاملة .

بتعبير آخر ان الحب اطلالة على العالم من الزاوية التي يضع الانسان نفسه فيها . الانسان بكل توقه الى الحرية ، لا الحرية بمعناها السياسي او الاجتماعي فقط وانما الحرية بمعناها الوجودي الشامل.

فكيف عبر الشاعر العربي الحديث عن هذا الحب ؟ وكيف ظهر في أشعاره ؟

للاجابة على هذا السؤال ، من وجهة النظر التي حددناها ، لا بد ان نتجاوز المرحلة الرومانسية في الشعر العربي الحديث ، هذه المرحلة التي كان علي محمود طه وابراهيم ناجي والياس ابو شبكة وابو القاسم الشابي .. أشهر روادها وأعلامها .

فلقد كانت المرأة في الادب الرومانسي ـ كما يقول احد النقاد (١) ـ محورا رئيسيا وجوهريا فيه . وهي ، لذاتها ، الهدف الاسمى ..

والرومانسية لا تظهر الا اذا كانت هناك عقبات كبيرة داخل المجتمع تضغط على الفرد وتقف دون تحقيق رغائبه وخاصة في تجربة الحب و لعاطفة ...

الا ان الحب الرومانسي يصبح ـ بتأثير ذلك ـ الحب المحروم ، الحب الذي يعتمد على الخيال والوهم لا على الواقع والتجربة .

ولما كان لا بد ان نجد عند كل شاعر مرحلة رومانسية ـ او بالاحرى مرحلة تكوّن تقوم غالبا على الخيال والوهم ـ تطول او تقصر حسب غنى تجربة الشاعر وتطوره ، فسنخوض فيها بقدر ما تترك من آثار على شعر اولئك الذين ينسجمون اجمالا مع وجهة نظرنا السابقة ، والذين هم موضوع بحثنا . كما اننا سنضطر الى تجاوز الشاعر نزار قباني الذي غنى للمرأة مئات القصائد لكنه ـ كما يقول غالي شكري ـ لم يتجاوز قط ، السطح الخارجي لمشكلاتها ... كأي شاعر صغير في مجتمع متخلف (٢) .

والواقع ان المرأة عند نزار انما هي دمية يعبث بها ، وجزء من متاع البيت يشكل فقدانه نقصا في الاستمتاع البرجوازي بالتملك ، قد يكون منغصا ومحزنا !!

وهو حين يعالج مشكلاتها ينظر اليها نظرة امير شرقي الى جاريته. انه السيد الذي يمنح ويعطي ... دون ان يكون المخلوق الآخر قادرا على الوصول الى الحرية المبدعة ، باعتباره انسانا كاملا مساويا له !

ولكن كيف تنظر امرأة شاعرة الى الحب ؟ أهي حقا ما تزال احدى جواري الف ليلة وليلة ؟ ان الحياة تقول : « لا !! » فلنسمع سنية صالح في ديوانها « صبر الاعدام » :

هتفت أن امنحني فرصة الحب والبكاء
فرصة النجاة من الموت والنسيان
أنت يا حريتي ...
مشدود كالحراب الى قلبي
لنتبادل النظر
عبر آلاف الاميال من الظلمة

---

(١) انظر رجاء النقاش ، مقدمة ديوان « مدينة بلا قلب » لاحمد عبد المعطي حجازي .

(٢) شعرنا الحديث الى أين ؟ ص ١٥٨ .

انني أبصر عروق الفراشات .. ونسغ الزهور
أبصر لهيب الحب يتدفق حارا ومذعورا

حسنا !! انها امرأة من لحم ودم ! وليست دمية ، رغم كل ما أحاط بها ، خلال عصور التخلف الطويلة . وانها لتدرك ماساة العصر الراهن ، وتعرف ان بامكان الحياة ان تكون اجمل :

في حنايا القلب مقصلة سريه
تنشر رائحتها ونجيعها
لتموت بين الطمئنة والطمئنة
والسفن المقروضة من الاعماق
تبحر شرقا وغربا .. كراس العاشق في محنته .

انها تعاني مرارة هذا العصر الدموي الهائج وتجرعها حتى الثمالة :

ثمة عويل يربط قلبي بحنجرة الارض
والزبد صوتي الضائع
قد تكون ثيابي مزيفة
ولآلئي مزيفة
قد يكون كل ما في العالم مخادعا ومزيفا
الا دموعي .. أنا المرأة ذات الاعوام المسننة
أنزف كجندي بتر راسه
وانا أذهب وأجيء وراء النوافذ العاليه
كاميرة تستعد للهرب
بعد أن أفسد الذعر فرحي وطفولتي

هذه المرأة تصرخ وتدين عالمها . وهي تعرف تماما انها تقف على حافته بانتظار ان تهوي . انها تنزف .. تنزف .. والحب يفقد براءته ولونه في هذا العصر المليء بالسلاسل ، المزور حتى الاعماق .. ولكنها تركض مذعورة ومهزومة بقدر ما هي محترقة بنار الشوق الى الحياة . وفي اللحظة التي يصبح فيها الحب انقاذا من الموت والنسيان، ويومض مرتفعا الى قمته ليصبح الحرية ذاتها ، ينحدر حتى لا يبقى الا لهبه الذي يتدفق حارا ومذعورا . والعاشق يظهر مثقلا بانبهاره الطفولي .. انبهاره الذي يقتل ويمسح .. تاركا مكانه الحزين مليئا بنصال حادة . ونحن لا نلمح جسد هذا العاشق ، فالجسد لم يعد الا وسيلة تتدفق من خلالها العواطف والآلام والانهيارات واحلام الولادة والموت وشعلة الحياة المهددة ، والغريبة المستعصية على كل فهم .

ان العالم يحرق هذه المرأة ولكنها ليست قادرة على ان تعرف لماذا ؟ او هي بالاحرى لا تبحث عمن طوّق العصر بكل هذه السلاسل وخطف من الحياة بريقها وسحرها . ولا عن اشكال حضوره وتحولاته .

ان في الامر على هذه الصورة تقصيرا عن بلوغ النظرة الشمولية للواقع . ومع ان فيه تجريدا ماساويا جميلا من حيث طريقة التعبير عن الانسحاق الفردي ، الا ان ذلك غير كاف ابدا .

ويشاركها الشاعر الكبير خليل حاوي هذا التجريد الماساوي بشكل ما « خائضا غمرة الصراع الوجودي بين مختلف الحتميات الكونية والحضارية وبين رغبة التحرر والخلاص من سيطرة هذه الحتميات على الانسان . ونراه في غمرة هذا الصراع ينشىء في ذاته، بوصفها جزءا من الذات الكلية أي الذات النوعية للانسان ، عالما تعصف فيه ريح الرعب ... وتترمد في صحاريه شعل الحياة وخصوبتها » (٣) .

وذلك قد أوقع الشاعر في ورطة الانطلاق من مواقع مثالية « ميتافيزيقية » ابعدته اكثر الاحيان عن رؤية ما هو جوهري في ازمة الوجود . انه يبدو غير ملتفت الى الصراع العيني الدائر بين القوى الاجتماعية ، المنعكسة آثاره بالضرورة على الحب والتي قد تجعل من الحب بطلا ومنقذا .

انه يكتفي بكشف الاخلاق المزورة التي تقوم عليها علاقات الافراد، في ديوانه « نهر الرماد » . ففي قصيدته « الجروح السود » يقول :

وكيف أصبحنا عدوين وجسم واحد يضمنا ؟
نفاق !!
كل يعاني سجنه .. جحيمه ..
في غمرة العناق

ولهذا يبحث عن ملجأ يقيه من الانسحاق في دوامة العالم فيتخيل ان له يوما جميلا مع عاشقته ، الا ان هذا ليس اكثر من حلم . انه يتهاوى أخيرا بعد ان اكتشف انه ليس اكثر من مضغة ضئيلة في جوف الحوت الكبير الذي يحيط به ويبتلعه ـ ملخص قصيدته : في جوف الحوت (نهر الرماد) .

وفي ديوانه الثاني « الناي والريح » ، يريد ان يحرق العالم المتفسخ حوله لتبعث من الرماد ، البدوية السمراء التي لم تتلوث بذلك العالم ، وبها يستعيد نقاء الحب وخلاص الانسان .

الا انه في ديوانه « بيادر الجوع » « يعود فيملؤنا بالحزن العميق الذي يعانيه وهو يواجه مرارة واقعنا ، بعد ان يلقي بعيدا بخاتم شهرزاد الذي يخلق جنات من الاوهام لا سبيل اليها » (٤) .

ان الحب لا يظهر في دواوينه الثلاثة أكثر من صدى خافت ، بعيدا عن ان يكون تلك النغمة الحارة ، النابضة في سمفونية الحياة العظيمة .

ونحن نلتقي بما نريد ، اكثر ما نلتقي ، عند ثلاثة من كبار الشعراء العرب المحدثين : بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي ومحمود درويش .

ولقد كان السياب عاشقا فاشلا حقا ، ولعل هذا كان مشكلة كبرى له . الا ان الحب لم يكن لديه شيئا منفصلا ومستقلا عن ظواهر الحياة ، الاخرى . ان الحب يختلط بالموت والثورة والمرض واليأس والخيبة .. متحولا بتأثيراتها معبرا عن ذاته باشكال كثيرة منسجمة مع تلك الجوانب المؤثرة جذريا في الحياة .

يشير ناجي علوش في مقدمة ديوان « اقبال » الى ان الشاعر في مرحلته الرومانسية كان يعيش صراعا بين نقيضين كل منهما فاجع ، هما الحب والموت .. الموت الذي اختطف أمه والذي لا مفر منه مهما حاول ذلك .. والحب الذي لا سبيل اليه مهما حاول ذلك ، ولقد انعكس هذا الصراع على مجمل حياته واشعاره .

ولا ريب ان معاناة مثل هذا الصراع ذي النتائج المقررة تترك في النفس مرارة قاسية ، وهو في قصيدة « شناشيل ابنة الجلبي » التي كتبها متاخرا ، يروي كيف كان يعشق ابنة سيد القرية ولا يملك اكثر من النظر الى شباكها في ضوء البرق الذي ينخطف في لمحة معجلة ليتركه وحيدا دون ان يظفر من محبته بطائل :

وابرقت السماء فلاح حيث تعرج النهر
وطاف معلقا من دون أسى يلثم الماء
شناشيل ابنة الجلبي نور حوله الزهر
عقود ندى من اللبلاب تسطع منه بيضاء
وآسية الجميلة كحل الاحداق منها الوجد والسهر
ثلاثون انقضت وكبرت .. كم حب وكم وجد
توهج في فؤادي ! غير اني كلما صفقت يد الرعد
مددت الطرف أرقب .. ربما اتلق الشناشيل
فابصرت ابنة الجلبي مقبلة الى وعدي

---

(٣) حسين مروة : دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ، ص ٣٨١ .

(٤) خليل كلفت : « الآداب » ـ عدد خاص بالشعر الحديث ـ سنة ١٤ ، عدد ٣ .

ولم أرها !! هواء كل أشواقي .. أباطيل
ونبت دونما ثمر ولا ورد

ان القصيدة في سياقها وتواترانها ، لا تتوقف دلالاتها عند الخيبة في الحب وحده ، بل انها الخيبة في انتظار كل ما انتظره : الثورة ، الصحة ، والحياة الجميلة الهادئة ايضا .

« ان بدرا كان يحلم في مرحلته الرومانسية بالثورة ... العاصفة الهوجاء التي تمنحه الحرية والحب » (٥) .

ويبدو ان التطلع العاطفي عبر حاجز العلاقات الطبقية كان موضوعا رئيسيا عند بدر ـ احيانا نسمعه يندد باولئك اللواتي يغريهن المال والمتاع فيرفضن ابناء طبقتهن ـ ومثل هذه التطلعات تنتهي دائما بصدمة له ... حتى ان أحد النقاد ليتساءل عما اذا كان منشأ الرفض الثوري عند السياب هو السياسة وحدها ؟ أم الحب أيضا ؟ وربما جعلته هذه الصدمات أحد شعورا بالفشل وأرهف . ولقد ود او تحبه امرأة واحدة ، امرأة واحدة ... وكما يريد !! هو الذي أحب العالم كله !! وهو في قصيدته « أحبيني » يعدد الاسباب التي منعت من أحبهن من محبته وكلها أسباب تعود لاوضاع طبقية .

وهو في قصيدته « عرس في القرية » يحدثنا عن زواج فتاة تدعى نوار ، زهدت في شباب القرية لان ثريا قد طلبها :

زهدتها بنا حفنة من نضار
خاتم أو سوار وقصر مشيد
من عظام العبيد
وهي يا رب من هؤلاء العبيد
كان وهما هوانا فان القلوب
والصبابات وقفا على الاغنياء

ومع ان هذا الكلام لا يكاد يكون شعرا الا انه يدلنا على سبب هام من اسباب قلة ثقته بالمرأة .

كما تدلنا كيفية تناوله للموضوع ، بسطحيتها ومباشرتها ، على اولى مراحل تطور ونمو معالجة قضية الحب داخل اطاره الاجتماعي حيث تصبح هذه المعالجة لدى شعراء آخرين ، اكثر حيوية ، او ملحمية ان صح التعبير ، ويصبح مفهوم الحب اكثر اتساعا وعمقا وثراء .. مع ظهور بدايات ذلك في بعض قصائده .

ولان السياب فشل في تحقيق أحلام العاشق الجسور فان المرأة تلوح له ، بعد عبث الحياة به بشكل فظيع ، مثل منقذ ياخذ عدم مجيئه طابع الياس المر والكآبة المؤلمة .

انه يدعوها اليه فهي مرفأ السلام الذي ينتظره ، هي المرأة وحسب ، المرأة دون رموز أو دلالات اخرى ، المرأة المحبوبة التي يريح العاشق على صدرها رأسه المتعب .

ولانها لا تاتي ، تصير مجرد خيال يستحضره ، ويعانق رداءها كانما يعانقها متشمما عبقها ، هاربا اليها :

أشم رداءك حتى كاني
سجين يعود الى داره يتنشق جدرانها
هنا صدرها ، قلبها كان يخفق ـ كان التمني ...
يدغدغه .. يشعل الشوق فيه ..

ان حبه لزوجه اقبال ، يتحول الى نوع من نشدان الطمانينة والهدوء بعد أن أتعبه المرض وشرده الى أقاصي الارض بحثا عن الشفاء .

ولكن قلة ثقته ، المزمنة ، بالمرأة تجعل هذا الحب غير مستقر ، انه في كثير من الاحيان يتحول الى صراع يائس : ان اقبال لا تحبه بل هي تشفق عليه اشفاقا فقط .

والواقع ان ازمته الفردية ـ مرضه ـ قد طفت بسبب عذابه الشديد ، على احساسه بالازمات الاجتماعية ، وجعلت مفهوم الحب يتضاءل عنده هكذا !

ان احساسه بالمرأة قد انقلب وأصبح مسطحا ، وهو الذي قال أيام كان معافى وثائرا ، في مطلع قصيدته العظيمة « انشودة المطر » :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
او شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الاضواء كالاقمار في نهر
يرجه المجداف وهنا ساعة السحر
كانما تنبض في غوريهما النجوم

ان عناصر أرض العراق وسمائه تنتظم متألقة مشرقة ، لتعطينا صورة هاتين العينين المحبوبتين ، وفي اطار هذا الانسجام الرائع الدفاق يتكامل عالم مذهل ، بالحب والنماء النابض في الارض ، وفي جراح الانسان واستلابه ووقائع حياته المتعبة .. ايذانا بالمطر والثورة والعالم الجديد ، وان يعشب العراق بالمطر . ولكن الحب عند السياب يبقى بحاجة الى اغناء واثراء . بينما يتطور مفهومه عند البياتي ـ على الرغم من ضآلة الحيز المخصص له في شعره ـ حتى يصبح جزءا من ديالكتيك الوجود ـ على حد تعبير أحد النقاد (٦) .

ويرى هذا الناقد « ان عظمة الحب عند البياتي لا تكمن في ديمومته بقدر ما تكمن في موته وبعثه . ولكن الموت والبعث لا يعنيان التعدد وانما يعنيان الوحدانية التي تجدد نفسها من خلال موت وبعث ما لا يتناهى في العالم » .

والبياتي يوضح لنا ذلك قائلا : « قد تبدو مشكلة الوجود والحياة ، فهمهما والمحافظة عليهما ، وتغيير مضمونهما ، هي المشكلة الاساسية للفنان ، وهنا تبدو قضية الحب ـ أو مشكلته ـ جزءا من هذه المشكلة . والفنان كما نعلم انما يعبر عن جوهر الكل والجزء معا ، وربما لم تترك لي حياتي العاصفة التي عشتها ، الفرصة ، او لم تمنحني ذلك الحق المترف للوقوف امام قضية الحب كجزء منفصل عن كل ، للتعبير عنه . وفي أشعاري يظهر مفهوم ـ أو زاوية اخرى ـ للحب : حب الام والارض والاطفال والوطن والانسان . اما الجنس فقد لا يكون مشكلة مؤرقة بالنسبة للفنان احيانا ، وهناك يتخطاه الفنان فلا يجابهه او يعبر عنه منفصلا مجسدا وانما يتركه لكي يتوغل ويترسب في اعماق روحه لكي تتجسد حقيقته الانسانية الشاملة قوة دينامية خالقة للاشياء ، وهذا ما كنت أحاوله دائما » (٧) .

والواقع انه يندر أن تتناول أشعاره الجنس كقضية مستقلة . وفي ديوانه « الكتابة على الطين » تتجسد الرؤية الديالكتيكية لهذا الجانب الحيوي في الوجود : (الحب) .

ففي قصيدته « النبوءة » نلاحظ ان الكلمات تتلاقى وتتكاثف مصطرعة اصطراعا داخليا تنبثق من انات البياتي واحلامه ، وارتباطه بارضه وبالعالم ، وارتباطه الخاص بتراث العراق ذي الحضارات الفنية المنقرضة ... ويتدفق هذا منعكسا على الواقع الراهن ومنعكسا فيه ، ويطلع الحب خلال ذلك مضيئا كشمس باهرة احيانا واحيانا مثل قمر باهت من الطين .. وعبر هذا التدفق يندفع صانعو الحضارات مرتحلين في سهوب الشرق المستعبد المستغل ، ليس هناك الا انتظار ما يحمله الزمن القادم من صبابة وانحدار ، يبرران خوف الشاعر وخشيته من السقوط النهائي للمستقبل .

الا ان قصيدته « قصائد حب الى عشتار » تظل نسيجا متفردا في عظمتها ورقتها وشمولها .. ان عناصر التكوين تختلط فيها اختلاطا متفجرا تتوائب عبره بذرة الحياة لتخرج المعشوقة من بين تغيرات

---

(٥) ناجي علوش : « الآداب » ، عدد خاص بالشعر الحديث .

(٦) عبد العزيز شرف : « الآداب » ، سنة ١٨ ، عدد ٦ .

(٧) تجربتي الشعرية ، البياتي : مجلة « الآداب » ، العدد ٣ السنة ١٤ .

الفصول وانحدار الصاعقة وتعرية الارض وجراحها لتعاين عذاب هذا الشاعر المنفي ، والذي يبحث أبدا عنها في الضفاف والتعاويذ وتحت جسور العالم ... انه ينتظر ولكن انتظاره لا يذهب عبثا ، فالطائر يغرد فجاة عبر النافذة ويهدي وردة محترقة ، بالشوق او بعذابات الانسان ، فاذا الوردة تصير طفلة واذا الطفلة تصير أنثى عاشقة ... انه حلم رومانسي ، على طريقة جديدة ووفقا لاسلوب البياتي ، ولكنه حلم بتحول العالم وتطهره ... الا ان الحلم ينتهي ليعود هو الى عذابه الخاص داخل واقعه الموضوعي ـ ويجدر هنا ان نلاحظ ان ازمة عبد الوهاب فردية بقدر ما هي اجتماعية وانسانية وان خلاصه يمر عبر خلاص النوع ـ ... انه كمن رأى الله بعينيه ولكنه لا يملك على رؤياه دليلا . وما دام قد عرف هذا الحب الكامل فهو يعود باحثا عنها واثقا من مجيئها في طريق ما من طرقات هذا العصر المرتجف ذعرا حتى العظام ، العصر الذي يكاد يغرق في دماره ... انه يريدها مثلما يخاطبها به في المقطع التاسع :

طفلة أنت وأنثى واعدة
ولدت من زبد البحر ومن نار الشموس الخالده
كلما ماتت بعصر بعثت
قامت من الموت وعادت للظهور

وهي ليست مجرد امرأة تسبغ عليها هذه الهالة من الكمال المتجدد ، انها قوة التاريخ المحركة الدافعة الى امام نحو شمس المستقبل :

لون عينيك وميض البرق في أسوار بابل
ومرايا ومشاعل
وشعوب غزت العالم لما كشفت بابل أسرار النجوم
لون عينيك سهوب حطمت فيها جيوش الفقراء
عالم السطوة والارهاب باسم الكلمه
وغزت أرض الخرافات وشطآن العصور المظلمه

ومع ذلك فماذا تساوي ان لم يكن حضوره يملؤها كما يملؤه حضورها ؟ انها نصف الخليقة الخالد الذي يحن ابدا الى نصفه الآخر الخالد من اجل ان تكتمل دورة الزمن وصعوده ، وها هي ذي تهتف به منتشية بقدرة الخلق الساطعة في جسديهما :

لا توفر جسدي ، أيامه معدودة
فلتشعل النيران فيه
قبلة اخرى فنعرى ونجوع
حاملين الشمس من تيه لتيه
جسدي أصبح ورده
عاريا في النور وحده

ان هذا اللقاء هو لحظة ولادة مدن الارض الجديدة ، المدن التي يغنيها دائما في شعره ، المدن المطمئنة العظيمة الحرة . وهو لا يصاب بالذعر الا نتيجة شكوكه بألا تولد تلك المدن حقا .. وان ذعره ليختلف تماما عن ذعر سنية صالح ، انه يملك تصور الوجه الآخر المضيء ، وذعره لا يؤدي به الى الهزيمة ، كما ان هذا الخوف انما هو نتيجة لمعرفته الشمولية للالم الانساني وأسبابه .

ولكن من هي هذه المرأة التي يدعوها « عشتار » ؟ أهي الهة الخصب والحب البابلية ذاتها ؟ أم حبيبته التي يبعدها عنه خروجه المستمر من منفى الى منفى ؟ ام هي الثورة التي يطارد من اجلها ويشرد ؟؟

ان الاجابة المحددة تبدو متعذرة .. ولعله يريد كل اولئك بشكل متداخل متكامل .. فكلهن تحمل حقيقة الحياة والولادة . والولادة لا يمكن ان تعني الا الارتقاء والتطور .

ولعل قصيدتيه « المعجزة » و « المجوسي » تمداننا بتصور اوضح لمجمل ازمته الوجودية والاجتماعية . ان الحب يسحق ، باعتباره جزءا من علاقات وقيم الانسان ، المستغل على ابشع صورة . وولادة الحب ـ الحرية رهن بولادة الانسان الحر .

ولقد شرد الشاعر حاملا وطنه في قلبه ـ كما يقول ـ ولكن سفره يطول ، والمطر يجف عن الاشجار والحقول والشوارع ، والكلمات تخذله .. ولا شيء الا قطارات الجليد وعذاب الرحيل والعاشق الذي يسبح في دمه . والمحبوبة التي يسلمها النخاس للسلطان يسلمها السلطان لاخس عبيده !!

انها ملامح المرحلة الراهنة من الصيرورة التاريخية الكبرى ، وعلى الفرد ان يحتمل :

المجوسي من الشرفة للجار يقول :
يا لها من بنت كلبه
هذه الدنيا التي تشبعنا موتا وغربه
كان قلبي مثل شحاذ على الابواب يستجدي المحبه
وانا لم أتعد العاشره
فلماذا أغلقوا الابواب في وجهي ...
لماذا عندليب الحب طار
عندما مات النهار ؟

لقد أخرج الاستغلال الانسان عن طبعه ، باتجاه تحويله الى ما يشبه آلهة بلا عواطف ، وهو منذ صغره قد حلم بعالم جميل مليء بالحب والازهار والمرايا ... ولكن كل عاطفة تموت في هذه الارض التي تقتال أبناءها ، وهو ـ كفرد ـ يتحول في نظر مضطهديه الى مجوسي ملعون مطارد ، حتى اذا دقت الساعة :

وجدوه عند باب البيت في الفجر قتيل
وعلى جبهته جرح صغير وقمر
وتعاويذ وقطرات مطر

ومع ان هذا القتل قتل معنوي ، او موت على اسوار مدينة العشق ، فانه ادانة لهذه الحالة اللاانسانية التي خلقتها ظروف النهب الامبريالي لانسان العالم الثالث .

ان الحب عند البياتي يندغم تماما في عملية الثورة التي ليست الهجرة الا وجهها الآخر بالنسبة اليه . وهذا الحب يصبح قوة محركة لها ، فاعلة فيها باعتباره جمالها النقي البريء الخلاق ، وحيث لا يكون الجسد سلعة ، وانما وسيلة للحرية بمعناها الشمولي .

الا ان ما يمكن ان يؤخذ عليه انما هو تعبيره عن كل ذلك بلغته الاسطورية الجليلة ذات التكثيف الذي قد يصل الى حد الخروج عن الدائرة الخاصة بالقصيدة مما يجعل شعره مرهقا للقارىء ، وبعيدا عن التأثير المطلوب في اولئك الذين وهب شعره لقضيتهم . ويطبع آثار بملامح رومانسية جديدة جعلت الناقد غالي شكري يصنفه كاكبر ممثلي تيار الرومانسية الثورية في الشعر العربي الحديث (٨) .

وثمة أمر آخر وهو ان المرأة لا تظهر في أشعار البياتي كانسان واقعي يحاول الانعتاق فيخلق من خلال ذلك الحب المتكامل . ان العالم عنده ما يزال عالم الرجل بشكل ما ، وعليه وحده ان يغيره . اما المرأة فلا تكاد تظهر مشاركتها في هذا التغيير . وربما كان مرد ذلك الى النظرة التجريدية للحب الذي يظهر بحالته المطلقة ـ رغم قوته الفاعلة في الحياة ـ من فوق دائرة علاقات الجنسين وتعايشهما .

وهذان المأخذان يتحرر منهما الشاعر الكبير ، الآخر ، محمود درويش . فلقد خلق من اللغة البسيطة المألوفة لغة صافية حارة لا تكلف فيها ، ودون ان يتخلى عن المميزات الاخرى في النظرة الثورية الى الحب ، بل هو يكثفها ويغنيها حتى تصبح المرأة المحبوبة عنده ، محبوبة بقدر ما هي مناضلة من اجل الثورة الفلسطينية التي هي جزء اساسي من ملحمة صراع الانسان في سبيل الحرية .

ولكن هذه الحالة من النضج التي يصل اليها محمود درويش في

---

(٨) شعرنا الحديث الى أين ؟ ص ٢٦ .

نظرته الى الحبيبة ، الحالة التي تصبح فيها المرأة شريكة نضال مساوية للرجل من حيث القيمة والفعالية ... لم يصل اليها الا من خلال تطور دائم بدأت فيه المرأة بالظهور ـ في اشعاره الاولى ـ كجسد فقط ، وكل اشعار ديوانه « عصافير بلا أجنحة » ، تقريبا ، تشهد بذلك . وليس هذا ماخذا .. وانما هو امر طبيعي ، اذ ان هذه الاشعار تنتمي الى مرحلة المراهقة ـ فترتها الاخيرة على الاصح ـ حيث الخبرة بالحياة الضاجة بالصراع العنيف حوله لم تمده ، بعد ، بكل أسباب التكون الصحيح وحوافزه .

وما ان يطلع علينا بديوانه « اوراق الزيتون » حتى نرى انه يريد ان يشد المرأة اليه كجزء من ارضه التي تضيع ... يريد ان يستوثق من انها ما تزال ، حيث يريد اما ، موجودة وقريبة من القلب.. حبيبة او اختا في المصيبة المشتركة

نامي عيون الله نائمة هنا واسراب الشحارير
لكن عين أخيك ساهرة خلف الضباب ووحشة السور
ويداه ممسكتان في لهف بترابه رغم الاعاصير

ونحن ما نزال هنا نلمس انها ، في نظره ، المخلوق الضعيف الذي يسهر الرجل على راحته : « نامي .. عين اخيك ساهرة » كما انها غير قادرة على معاناة المحنة وادراكها كالرجل :

اتركي قلبي يبكي
انا أدرى منك بالانسان والارض الخصيبه
لم أبع مهري ولا رايات ماساتي الخضيبه
ولاني احمل الصخر وراء الحب والشمس الغريبه
انا ابكي ...!!

ان « قضيته » تدخل نطاق الحب عنده على استحياء ، ثم ما تلبث ان تمنحه لونها واسمها حتى لتصبح فلسطين هي الحبيبة الاولى وتصبح المرأة محبوبة اكثر ، لانها فلسطينية :

عيونك شوكة في القلب .. توجعني واعبدها
واحميها من الريح
واغمدها وراء الليل والاوجاع .. اغمدها
فيشعل جرحها ضوء المصابيح
فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك في دفاتري القديمة نار اشعاري
حملتك زاد اسفاري

وكلما اتسعت النكبة وتعمقت .. وكلما ازداد الشاعر احتراقا فيها ، وضاقت انشوطة الغزاة حول عنقه ، كلما ازدادت فلسطين تغلغلا في ذرات دمه وجسده وازدادت حياته ذوبانا فيها بنوع جديد وحاد من التوحد الصوفي الرائع ببساطته وواقعيته ، تصبح فيه المرأة جزءا حيويا من آلام الزمان والمكان ، ومن المعاناة الصامدة لهذه الآلام المشتركة :

نحن في حلّ من التذكار فالكرمل فينا
وعلى اهدابنا عشبه الجليل
لا تقولي ليتنا نركض كالنهر اليها
لا تقولي ..
نحن في لحم بلادي .. هي فينا

■ ■ ■

صوتك الليلة سكين وجرح وضماد
ونعاس عاد من صمت الضحايا
اين اهلي
اخرجوا من خيمة المنفى وعادوا مرة اخرى سبايا

. . .

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبه
وانا لست المسافر
انني العاشق والارض الحبيبة

ان هذا التوحد الطالع من صميم المذبحة المنظمة لوطنه واهله ، يقف حائلا بينه وبين ان يعيش حياته البسيطة السعيدة العالة مع من يحبها ، ومع ذلك فهو لا يفقد امله ، ان ثقته به هي ثقة الثوري الاصيل بالحقيقة العظيمة الكامنة في المستقبل :

نامي على حلمي ... مذاقك لاذع
عيناك ضائعتان في صمتي .. وجسمك حافل بالصيف والموت الجميل
في آخر الدنيا أضمك .. حين تبتعدين ملء المستحيل

وبواقعية اكثر يكشف سر امتناع الحب .. وماذا حال بينه وبين الحبيبة :

بين ريتا وعيوني بندقيه
والذي يعرف ريتا ينحني
ويصلي لآله في العيون المسليه
وانا اذكر كيف التصقت
بي وغطت ساعدي احلى صفيره
وانا اذكر ريتا
مثلما يذكر عصفور غديره
آه ريتا ...
بيننا مليون عصفور وصوره
ومواعيد كثيره
أطلقت نارا عليها بندقيه (٩)

ان هذه المحرقة التي يتحتم على شعب بكامله ان يكون حطبها ... هذه الابادة لا تستثني أحدا . ولكن اهم شيء في المحرقة انها تطهر ، وتلغي كل ما لا يستطيع ان يمد الحياة بدم جديد .. ان الشعب الذي يجابهها متمسكا بالحياة ، مقاتلا من اجلها لا بد له ان ينفض عنه كل الاثقال التي ورثها والتي تعيق حركته وبالتالي لا بد ان يسقط كل قيود العبودية ومنها قيد عبودية المرأة .. انها بتحررها تصبح انسانا سويا قادرا على النضال والاستشهاد ، بالغة بذلك قمة التساوي بينها وبين الرجل . ان محمود درويش يصل بها الى هذا الحد ، من خلال المذبحة الفلسطينية :

لا تلمني ان تأخرت قليلا
انهم قد اوقفوني
غابة الزيتون كانت دائما خضراء .. كانت يا حبيبي
ان خمسين ضحيه
جعلتها بركة حمراء .. خمسين ضحيه
يا حبيبي لا تلمني ...
قتلوني ... قتلوني

وهكذا تكتمل الرؤية الثورية للحب والمرأة عند محمود درويش ،

---

(٩) ربما يخيل للقارىء ان « ريتا » اسم ليهودية . ولكن اسم « ريتا » يرد اول ما يرد في قصيدته « ريتا احبيني : اغنية لم يلحنها ميكيس تيودوراكيس » ، وقارىء هذه القصيدة يعتقد انها الحبيبة الحقيقية او المتخيلة للموسيقار اليوناني التقدمي المذكور . وقد جعلني هذا ، اعتقد ان الشاعر يستخدم هذا الاسم كرمز لحبيبته العربية ، او كعنوان للحبيبة في اشعاره ، بعد ان شبه نفسه في فترة اعتقاله في منزله بالارض المحتلة ، بالموسيقار اليوناني المناضل . (انظر ديوان محمود درويش ص ٤١٠ ـ منشورات دار العودة) .

وهذا الاكتمال نقطة تفوق في هذا المجال على ما عند البياتي .. ان البياتي قد خلق للمرأة صورة فوق ـ الواقعية ، صورة خرافيـــة ان صح التعبير وجعلها محركا للحضارة ، عنقاء الحضارات . فاخرجها بذلك عن حدها الاجتماعي الى حد المثالية الرومانسية ، بينما أعادها درويش الى حقيقتها الانسانية الواقعية ، فاغناها وفتح امامها درب الحرية العظيم .

ان اشعاره تقدم المرأة كجسد ، وكحرم تجب على الرجل صيانته، وكدافع للنضال ، وحلم عذب خطير تقف آلات الدمار دونه ... واخيرا كشريك في النضال لا يمتاز عليه شريكه بشيء ...! تقدمها كخلية فاعلة من جسد الوطن المعذب المنهوب .

وما يحققه محمود درويش في قصيدته « قتلوك في الوادي » هو أمر يحتوي كل هذا ويتجاوزه . انها الصوفية ـ الملحمية الجديدة التي يصبح فيها الشاعر والحبيبـــة والوطن كلا واحدا عبر الصراع الدامي ضد قوى الغزو الغاشم ، وعبر آلام الصراع التي ليست الا جزءا من آلام الانسانية المناضلة من اجل مستقبلها الجميل .

الحب ذاته يصبح ملحمة .. وقفة تحد عظيمة ضد الموت الجديد، الموت تحت اسنان الآلة الامبريالية .. وهو بالتالي صراع مصيري من اجل الحياة :

هي أول الدنيا ومنتصف الطريق انا .. وحبي ملحمه
جسدي يرادف كل نافذة محطمة وشمس معتمه
عدنا من الموت القديم بموعد الموت الجديد ولم نمت
كل المشانق أوسمه
وبكل ما أوتيت من عسف الحياة أصيح :
فلتحي الحياه !!

ان العالم السعيد المنتظر لا يمكن الا ان يكونمليئا بالحريةوالحب، ومن اجل هذا العالم يقدم الشاعر كل شيء عنده : ذاكرته وتشرده ، ماضيه وحاضره ، للحبيبة التي تصطرع حول عنقها البروق والسكاكين، سيف المحرر صلاح الدين وحراب الغزاة الصليبيين داخل الاستعـادة الديالكتيكية للتاريخ . ومن اجل حطين الجديدة التي لم تولد بعد ، حطين التي املأ القلب بآلاف الاسئلة الجارحة ، وتملأ الوطن بالحركة الدامية المستمرة من اجل ولادتها :

ماذا تقول الشمس في وطني ؟
ماذا تقول الشمس ؟
هل انت ميتة بلا كفن
وأنا بدون القدس ...

لكن هذه الميتة ـ الحية تخرج في لحظة استثنائية خارقة لتعيـد الى هذه الارض نقاءها وجمالها :

طلعت من الوادي ...
يقال تضاءل الوادي وغاب
وجمالها السري لف سنابل القمح الصغيرة ...
حل اسئلة التراب
هل تذكرون الصيف يا ابناء جيلي
يا كل ازهار الجليل وكل ايتام الجليل
هل تذكرون الصيف يطلع من انامله ويفتح كل باب ؟

ان هذا المجيء العظيم الخلاقهو الحلم الكبير ، وبينه وبيـــن الواقع ، حقا ، كل اشكال السحق والتزوير والخيانة ... الا ان هذا لا يدفع الشاعر الا الى مزيد من الامل عبر احتدام الصراع وتأججه :

الريح واقفة على خنجر
ودماؤنا شفق
لا تحرقي منديلك الاخضر
الليل يحترق ...
لم نعترف بالحب عن كثب
فليغضب الغضب
نمشي الى طروادة العرب
والبعد يقترب

ومع ان ما يلي هذا انما هو عرض مكثف حار وحزين لمرارة الواقع الفلسطيني ودمويته :

ولتذكرينا .. نحن نذكرك اخضرارا طالعا في كل دم
طين ودم
شمس ودم
زهر ودم
ليل ودم

الا انه يهتف مؤكدا ، ضد كل الهزائم والمهزومين ، ان ثمـــة ما لا يطوله الموت ولا تحنيه الهزائم :

كل الجذور هنا ...
هنا كل الجذور الصابرة
فلتحترق كل الرياح السود في عينين معجزتين ...
يا حبي الشجاع
لم يبق شيء للبكاء ... الى اللقاء .. الى اللقاء
الموت مرحلة بدأنا ...
وضاع الموت .. ضاع
في ضجة الميلاد .. فامتدي من الوادي الىسببالرحيل
جسما على الاوتار يركض كالغزال المستحيل

قد يكون هذا العرض للقصيدة مخلا بها او غير قادر على تقديمها كما ينبغي . فالواقع ان قوتها الحارة المتدفقة لا يمكن ان ينقلها الا هي ذاتها .. انها تشكل في الحقيقة قمة عالية في شعر الحب النضـالي. وفي مثل هذا الشعر وحده ياخذ الحب مكانه الطبيعي وحجمـــــه الحقيقي . ويستعيد قدرته الاصيلة على اثراء الحياة الانسانيـــة واسعادها .

وانه ليمكن لنا ان نؤكد ان شعرنا الحديث يسير تماما حيث يجب ان يسير فاتحا دروبا جديدة الى الروعة والخلود لم تتهيأ له من قبل . وتتحرر المرأة تحررا حقيقيا لا مظهريا ، اذ ان تحررها يجب ان يبدأ بتحرير نظرة الرجل اليها من كل آثار السلوكية الموروثة وعبوديتهـا . وهذا التحرير لن يكون كاملا ما لم تكن الحياة الاجتماعية والانسانيـــة محررة . ودون ذلك نضال شاق ومرير ... نضال عظيم بقدر ما هـــو دموي ، يمكننا ان نوجز مضمونه بالقول : انه تاريخ الانسان المعـاصر وحصيلة تطوره وتقدمه .

واخيرا فان الشعر العظـــــيم لا بد ان ياخذ بتطلعات النفس البشرية ، كما ياخذ بتطلعات الجماعة والنوع ، دون ان يطغى فيه جانب على جانب ، محققا بذلك التكامل الخلاق بين هذين العنصرين ، رابطا أولهما بالثاني من أجل التعبير عن غنى الحياة الانسانية وتدفقها الابدي المتجدد مهما كانت العقبات التي تعترضه ، والعراقيل التي توضـع في طريقه (*) .

سورية ـ دريكيش

احمد يوسف داود

(*) ملاحظة : هذه الدراسة لا تدعي الاحاطة بكل ما يمكن ان يندرج تحت عنوانها ، وقد اكون اغفلت اشعارا مهمة لشعراء بارزيـن تتعلق بالموضوع . ولكن العذر في ذلك انني اردت أن أرسم خطا معينـا ـ وضحه المقال ـ في النظرة الى الحب الذي هو موضوعة اساسية في الحياة الانسانية . وقد اعتمدت في ذلك على بعض من اشهر الاشعـار المتداولة ، لاعتقادي انها اكثر جدارة في توضيـــح الملامح التي أردت كشفهـــا .